الكلامية بهذا الفعل القاسى المسرف المتجاوز للحدِّ ، حيث جمعتم علينا الرجْم والعذاب الأليم .

فى هذه الأثناء ، ماذا حدث ؟

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ﴾[يس] يدل على أن الرسولين الأولين اللذين كذَّبهما القوم كان لهما أنصار مؤمنون بهما ، مُصدِّقون لدعوتهما ، فلما جاء الثالث وأيضاً كذَّبه القوم أخذتْ هؤلاء المؤمنين حَمِيَّة الحق ، وكان منهم هذا الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لنُصْرة الحق وإعلاء كلمته ، وقالوا : اسمه حبيب النجار(١) .

ونلحظ فى هذه الآية أولاً قوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ (٢٠) ﴾

(١) قال القرطبى : هو حبيب بن مرى وكان نجاراً . وقيل : إسكافاً . وقيل : قصاراً (صبّاغاً) . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام ، قال وهب : كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر فيفرِّج عنك ما بك . فقال : إن هذا لعجب لى ، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس . تفسير القرطبى (٨/٥٦٥٣) .

[يس] أنه لم يكن قريباً من مكان هذه المناظرة الكلامية ، وأنه تحمَّل المشاق فى سبيل نُصْرته للحق ، وهذا دليل على قوة الطاقة الإيمانية عند هذا الرجل ، ودليل أيضاً على أن الرسولين السابقين قد بلغت دعوتهما أقصى المدينة .

ثم وصفه بأنه (رَجُلٌ) ولم يَقُلْ فلان ، فذكر الصفة البارزة فى تكوينه أنه رجل .

وهمَّة الرجل هى التى تحدد مقدار رجولته ، فرجل يريد الحياة لنفسه فقط والكل يخدمه ، يرى كل شىء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد ، هذا رجل وطنه نفسه وذاته ، ورجل وطنه أهله وعياله يُعدِّى إليهم منفعته ، ورجل وطنه أمته ، ورجل وطنه العالم كله مثل سيدنا رسول الله ﷺ ، فهو فلسفة الرجل .

إذن : همَم الرجال هى التى تحدد أوطانهم ومنازلهم ، وأعلى هذه المنازل رجل وطنه العالم كله ؛ لأن الخَلْق كلهم عيال الله ، فمَنْ يحب الخير لهم وينثر عليهم ما ينفعهم فقد استأمنه الله على رزق العباد .

ومثَّلنا لبيان ذلك قلنا : هبْ أن لك أولاداً ، واحداً منهم يأخذ مصروفه فينفقه على ملذاته ورغباته وفيما لا يفيد ، والآخر يشترى بمصروفه حلوى ويُوزِّعها على إخوته الصغار ، فأيهما تُؤثره بعد ذلك ، وأيهما تزيده ؟ كذلك اليد المناولة عن الله لخَلْق الله ، وكأن الله يقول له : أنت مأمون على نعمتى ، مأمون على خَلْقى ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَإِنِّى امْرُؤٌ لاَ تَسْتَقِرّ دَرَاهِمِى ... عَلَى الكَفِّ إلاَّ عَابِرَاتِ سَبِيل

وقوله ﴿يَسْعَىٰ ⁽٢٠⁾﴾ [يس] يعنى : أن مجيئه لم يكُنْ عادياً ، إنما

مسرعاً يجرى ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ⁽٢٠⁾ ﴾ [يس] وقوله ﴿ يَـٰقَوْمِ ⁽٢٠⁾ ﴾ [يس] نداء لتحنين المنادَى ، كأنه يقول : يا أهلى ، يا عشيرتى ، يا أبنائى ، فذكر ما بينه وبينهم من صلات المودة والرحمة .

وقوله ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ⁽٢٠⁾ ﴾ [يس] يدل على تأييده لهم ، وهو هنا يذكر الحيثية الأولى لهذا الاتباع هى أنهم مرسلون ، ثم يذكر لهم حيثية أخرى فيقول : ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ⁽٢١⁾ ﴾ [يس] يعنى : لم يطلبوا منكم أجراً على دعوتهم .

وكلمة ﴿ مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ⁽٢١⁾ ﴾ [يس] لا تُقَال إلا إذا كان العمل الذى قام به يحتاج إلى أجر ، والرسول ما جاء إلا لينفع المرسَل إليهم ، فهو منطقياً يحتاج إلى أجر ، لكن مَنْ يستطيع أنْ يوفيه أجره ؟ لا أحد يوفيه أجره إلا الله ؛ لأن نَفْع الرسول يتعدَّى نفْع الدنيا إلى نفع الآخرة ، فمَنْ من البشر يعطى الرسول ما يستحقه ؟

لذلك رأينا الرسل جميعاً يقولون هذه الكلمة ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ⁽٧٢⁾ ﴾ [يونس] يعنى : أنتم أيها القوم لا تملكون مقدار أجرى ، ولا تقدرون على تقييمه ، إنما يعطينى أجرى الذى أعمل من أجله . كل رسل الله قالوا هذه الكلمة إلا رسولين ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا : لأن إبراهيم كانت أول دعوته لأبيه آزر ، ولا يليق أنْ يطلب منه أجراً على دعوته إياه إلى الحق ، كذلك سيدنا موسى أول ما دَعا دَعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله فَضْل عليه ، فكيف يطلب منه أجراً ؟

وقوله سبحانه ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ⁽٢١⁾ ﴾ [يس] حيثية ثالثة لاتباعهم ،

فهم مُرْسَلُون من قِبَل مَنْ أرسله الله ، والله لا يرسل إلا مَنْ يهدى إلى صراط مستقيم يوصل إليه سبحانه . فهؤلاء المرسلون مهتدون فى أنفسهم ، وبالتالى هادون لغيرهم ، فهو إذن يذكر الأمر وعلَّته ، فهؤلاء الرسل لا يسألون أجراً ، ولا يدعون إلى ضلال ، بل إلى هدى .

ثم يلتفت هذا الرجل إلى نفسه ، فيقول للقوم : أنا لا آمركم أمراً أنا عنه بنَجْوَة ، ولو كنتُ سأغشُّكُم فلن أغشَّ نفسى ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾ [يس] أى : خلقنى من العدم ، فهو أوْلى بالعبادة ، هو الذى صنعنى ، أوجدنى من عدم ، وأمدَّنى من عُدم ، ولا زال يُوالى علىَّ نعمه ، إذن : ما يمنعنى أنْ أعبده وهو أَوْلَى بالعبادة ، ولو لم تكُنْ عبادتى له إلا لأُكافئه على نعمه دون نظر إلى ثواب ، لكانتْ عبادته واجبة .

وهذا ليس كلامَ رسول ، إنما كلام رجل مؤمن متطوع باشر الإيمانُ قلبه ، فأراد أنْ يزكّى إيمانه ، وأنْ يُعدّى هدايته إلى غيره من باب قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(١)]

الحق سبحانه خلق الخَلْق أولاً ، ثم أرسل الرسل بالمنهج لهدايتهم ، الرسل بدورهم بلَّغوا الأصحاب ، ومَنْ بلغه شىء تحمله كما يتحمله الرسول ، لذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ : « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها فرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع »[(٢)]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) ، والحميدى (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

إذن : مسئولية الدعوة يتحملها أولاً الرسل ، ثم المؤمنون بهم الذين بلغتهم الدعوة . وهذا التحمُّل ليس تفضُّلاً ، إنما تكليف من الله ، لذلك قال سبحانه : ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة] . فكما شهد الرسول أنه بلغكم ، فواجب عليكم أنْ تشهدوا على الناس أنكم بلَّغتموهم ؛ لأن المؤمنين بالرسالة امتداد للرسول .

لذلك ، رأينا هذا الرجل المؤمن الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لإعلاء كلمة الحق وتأييد الرسل لم يكن رسولاً ولم يكلِّفه أحد بهذا ، إنما تطوَّع به ؛ لأن طاقة الإيمان عنده دفعته إلى هذا الموقف .

ثم نراه يُطبِّق المسألة على نفسه أولاً ، فيقول : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾[يس] وهذا تلطُّف فى عرض الدعوة وأحرى أنْ تُقبل .

وقوله : ﴿وَمَا لِيَ (٢٢)﴾ [يس] كأنه يتعجب من أمر نفسه لو أنه لم يؤمن بالذى فطره ، والتعجب من النفس أصدق ألوان التعبير ، كأنه لا يمارى ولا يداهن ويقول ما فى نفسه ، كما قال سيدنا سليمان ـ عليه السلام : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ (٢٠)﴾ [النمل]

فالجواب ليس عند الغير ، بل عنده هو ، كأنه يقول : لا بُدَّ أن يكون الهدهد موجوداً لكنى لا أراه ، فالقاعدة أنه يستعمل الكل والكل موجود ، فالعجب عندى أنا : ما لى لا أراه ، ثم يعيد الأمر ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] يعنى : إما أنْ يكون المانع من عندى أنا ، أو من عنده ، كأنه يُشكِّك فى الأول ، ثم يُدقِّق الأمر فيجده من عنده هو .

فقوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] كأن أمر الفطرة والخَلْق يقتضى أن تَعْبد الذى فَطَر ، والخروج عن هذا أمر يستدعى العجب .

لذلك فى سورة البقرة الحق سبحانه يلقننا فى مخاطبة الكافرين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ (٢٨)﴾ [البقرة] يعنى : كيف يكون ذلك منكم ، إنَّ كفركم بالله الذى خلقكم ورزقكم أمر لا يجوز بالمنطق العقلى ، فأخبرونا إذن الطريقة التى كفرتم بها .

والفَطْر : الخَلْق العجيب على غير مثال سابق ؛ لذلك يقول سبحانه عن نفسه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (١١٧)﴾ [البقرة] يعنى : خلق السموات والأرض ابتداءً على غير مثال سابق احتذاه فى الخَلْق .

أو : أن المعنى ﴿الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾[يس] أى : على الإيمان به إيمان فطرة ، إذن : فإيمانه بالله إما إيمان شكر لمن خلقه وأوجده على غير مثال سابق ، أو إيمان الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، واستجاب هو لمَا فى ذاته من هذه الفطرة .

وحين نتأمل مهمة هذا الرجل نجد أنه أشبه بالقلب بالنسبة لباقى أعضاء الجسم ، أى : من حيث تكوين مراحل الإيمان ، كيف ؟ الجسم عبارة عن جوارح متعددة ، لكل جارحة مهمة ووظيفة ، وحياة الجسم تتطلب مقومات الحياة من الطعام والشراب والهواء ، فيأكل الإنسان من نتاج الأرض ، ويشرب من مائها .

وبعد عملية التناول وما فيها من نِعَم لله فى أسنان تقطع ، وأضراس تطحن ، ولعاب يساعد فى عملية البلع ، وعصارات هاضمة.. الخ يتمثل الغذاء فى الجسم إلى دم يستقبله القلب فيأخذ

منه حاجته أولاً ليقوِّى نفسه على ضَخِّ الدم إلى باقى الأعضاء ليؤدى كلُّ عضوٍ مهمته .

كذلك ، كان هذا الرجل من حيث قوة إيمانه ، فبعد أنْ آمن واستقر الإيمان فى قلبه أراد أنْ يُعدِّى إيمانه إلى قومه ، وأنْ يُشعَّ عليهم من الهداية التى تشرَّب بها قلبه ، إذن : فهو يمثل قلب الرسالات ، لذلك جاء فى الحديث الشريف أن « يس قلب القرآن »(١) وهذه المسألة لم تأت إلا فى يس ، لذلك كانت هى قلب القرآن ؛ لأنها جاءت بآخر مرحلة من مراحل الرسالات التطوعية التى تخدم الرسالة الواجبيّة .

وما دام أن رسول الله ﷺ قد أخبر أن يس قلب القرآن ، فعلى المؤمن أنْ يقبل كل ما جاء فى فضلها مما صَحَّ عن رسول الله ، وليس من الضرورى أن نقف على علَّة كل شىء ، لأن الإيمان كما قلنا غيب ومشهد ، والمؤمن يأخذ من صدْق ما شاهد دليلاً على صدْق ما غاب عنه .

إذن : لنأخذ هذه الأحاديث على العين والرأس ، حتى إن قرأتَ يس ، فلم تجد ما أخبرتْ به الأحاديث ، فيكفيك أنك تقرأ كلام الله ، ولن تُعدم الخير على أىِّ حال ؛ لذلك رأينا بعضهم يضع الأحاديث التى تحثُّ على قراءة القرآن .

وقد ورد فى حديث أُبىٍّ أن المريض الذى تُقرأ عنده يس تأتيه صفوف الملائكة على قدر كل حرف منها عشرة آلاف ملَك ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٦) من حديث معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرأوها على موتاكم » .

لا يفارقونه حتى يموت ، ثم يشهدون تغسيله ، ويشهدون تشييعه ، والصلاة عليه ودفنه[1] .

وفى رواية أخرى : مَنْ قُرئت عنده يس وهو مريض ، أو قرأها هو لنفسه يأتيه جبريل عليه السلام بكأس فيه ماء ، فيشربه شربةً لا يظمأ بعدها ، ولا يحتاج إلى أحواض الأنبياء[2] .

هذا كله وغيره على العين والرأس ، تحقق معناه عندنا ، أو لم يتحقق .

وقوله سبحانه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] يعنى : لا تظنوا أنكم تفلتون من الله ؛ لأنكم فى قبضته ، وأنتم فى البدء كنتم منه بإقراركم ، وكذلك تكون النهاية إليه والمرجع ، فإنْ لم تُقدِّروا نعمة الإيجاد فقدِّروا مغبة العَوْد .

ونلحظ فى هذه الآية أن الرجل المؤمن يتكلم عن نفسه بصيغة المفرد ﴿وَمَا لِىَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى (٢٢)﴾[يس] ثم يعدل عن الإفراد إلى خطاب الجماعة والقوم المكذِّبين ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] ولم يَقُلْ : وإليه أرجع ، لماذا ؟

قالوا : لأن الطاعة التى هى أصل العبادة إنما تأتى على مراحل ثلاث :

---

(١) قد صحت أحاديث فى فضل سورة يس ، ليس من بينها ما ذُكر هنا ، فقد أخرج الترمذى والدارمى والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٣٧) .

(٢) ما وجدته قريباً من هذا ما أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى قلابة موقوفاً عليه : من قرأ يس غفر له ، ومن قرأها عند طعام خاف قلته كفاه ، ومن قرأها عند ميت هوِّن عليه ، ومن قرأها عند امرأة عسر عليها ولدها يسر عليها ، ومن قرأها فكأنما قرأ القرآن إحدى عشرة مرة » قال البيهقى : هكذا نُقل إلينا عن أبى قلابة وهو من كبار التابعين ، ولا يقول ذلك إن صح عنه إلا بلاغاً .

الأولى : أنْ تطيع مَنْ تجد فيه نموذجاً كمالياً يستحق أن يُطاع ، ويستحق أنْ يُحمد لكماله ، وإنْ لم يَعُدْ عليك منه شيء ، كما تنظر مثلاً إلى قصيدة رائعة معبِّرة فتعجب بقائلها وتثنى عليه ، أنت لا يعود عليك شيء منها لكنك تُقدِّر الشاعر لذاته .

الثانية : أن تطيع إنساناً وتُقدِّره لمنفعة تعود عليك منه ، وكثيراً ما نرى الناس يخدمون رجلاً جباناً لا يستحق أنْ يخدم ، وما خدمه الناسُ إلا طمعاً فيما عنده .

والمرحلة الثالثة : أنْ تطيع شخصاً أو تحترمه لمجرد الخوف منه واتقاءَ شرِّه .

وقد حقق الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى المرحلتين الأولى والثانية فى قوله ﴿ وَمَا لِىَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى (٢٢) ﴾[يس] فأنا أعبده لأنه بكماله يستحق أنْ يُعبد ، وأعبده لنعمه المتوالية ، أما المرحلة الثالثة فجعلها لهؤلاء المكذِّبين من قومه ، فقال ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴾ [يس]

يعنى : تنبهوا يا قوم : إذا لم تَقدروا فى الله صفات الكمال التى يُحبُّ لأجلها ، ولم تقدروا فى الله نعمه المتوالية عليكم ، فاعلموا أن العودة إليه والمرجع والمصير بين يديه ، وهو سبحانه قوى عليكم ، لا يفلت من قبضته أحد .

ثم يؤكد هذا الرجل المؤمن على مسألة عبادة الله وحده ، فيزيد :

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ ﴾

الاستفهام فى ﴿أَأَتَّخِذُ ﴿٢٣﴾﴾ [يس] يحمل معنى التعجُّب والإنكار ، فهو يتعجب وينكر : كيف يتخذ من دون الله آلهة ، والله هو الذى خلقه ، وحين تتأمل معنى الفعل (أتخذ) تجد أن الشىء المُتَّخذ ليس أصلاً ، فمعنى اتخاذ آلهة أنها ليستْ آلهة فى الحقيقة ، وأنها لا تستحق أنْ تكون آلهة ، لكنك عمدتَ إليها فجعلتها آلهة ، ومثله اتخاذ الولد فى قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ.. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]

فالمعنى : أن الله تعالى ليس له ولد فى حقيقة الأمر ، وإنْ قلتم اتخذ الله ولداً ، فهذا يعنى أنه أتى سبحانه إلى ولد فتبنَّاه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكما تقول أنت اتخذت ولداً . يعنى : أتيتَ إلى ولد لم تنجبه فتبنَّيْته .

إذن : ما دامت هذه آلهة متخذة ، فالمعنى أنها ليس لها وجود أصلاً ، وكأن الرجل يُصحِّح للقوم فكرتهم عن العبادة .

وقوله سبحانه : ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ ﴿٢٣﴾﴾[يس] هذه العبارة فيها لفتة لطيفة ينبغى تأملها ؛ لأن صفة الرحمة فى الرحمن تتناقض مع الضر ، فكيف جمع السياق بينهما ؟

نقول : إذا فسرتَ ما يجرى عليك به قَدَر الله على أنه ضُرٌّ لك فتعقَّل أنه من رحمن ، فلا بد أن يكون لمجريه عليك وهو الرحمن حكمه فيما أجرى ، لذلك نقول : أحمدك ربى على كُلِّ قضائك وجميع قدرك ، حَمْدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

فكأن الحق سبحانه يقول لك : تنبه أنه ليس كل ما تراه بقوانينك أنت ضاراً لك ، هو كذلك ؛ لأن مُجريه عليك رحمن ، ففى طيَّات هذا الضر نَفْع كثير . كما يقدم الأب الحنون ولده للطبيب فيُجرى له جراحة مؤلمة ، أو يقطع جزءاً منه ليُصلح باقى الجسم ، فهذا ضرر

فى الظاهر ، وفى الحقيقة رحمة به .

لذلك سبق أنْ قلنا : إذا دخل عليك ولدك يسيل دمه ، فلا تستقبل هذا لا بالرضا ، ولا بالسخط ، إلا بعد أنْ تسأل عن الفاعل ، فإنْ كان عدواً سخطْتَ عليه ، وإنْ كان مُحباً تقبلْتَ ما حدث بالرضا ، وقلتَ للولد : لا بد أنَّ عمَّك مثلاً رآك تخطىء فَعاقبك .

كذلك لا تحكم على أقدار الله التى يُجريها عليك إلا من منطلق أنها من رحمن أرحم بك من الوالدة بولدها ، وأنت خَلْقه وصَنْعته ، وما رأينا أحداً من حمقى البشر يعمد إلى صنعته فيحطمها ، إنما يعتنى بها ، ويُعمل فيها يد التجميل والتزيين ، كما ترى النجار مثلاً يمسك بـ (الفارة) وينحت فى الخشب . أتقول : إنه يضر بصنعته ؟ لا بل يُصلحها ويُزينها .

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحب ، فبحقِّى عليك كُنْ لى محباً »(١) أبعد هذا التودد من الخالق للخَلْق يُجرِى عليهم ما يضرهم ؟

وفى حياتنا العملية كثيراً ما نرى شواهد لهذه المسألة ، فكثيراً ما يفوتك القطار أو الأتوبيس مثلاً ، فتأخذ الميعاد التالى ، وفى الطريق تجد القطار أو الأتوبيس حدث له حادث فتصحح أنت فكرتك الأولى ، وتُحوِّل غضبك لفوات القطار إلى شكر لله الذى نجَّاك ، وكنتَ تظن غير ذلك . إذن : انظر إلى مَنْ أجرى عليك الأقدار ، ولا تنظر إلى المنفعة السطحية ؛ لأن لله تعالى حكمة فيما يُجريه ، تعلمها أنت أو لا تعلمها .

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً » .

أيضاً كثيراً ما يُخفق أحد أبنائنا مثلاً فى الامتحان وقد ذاكر واجتهد وحصَّل العلوم .. الخ لكن عَرَض له عارض من مرض أو غيره فلم يُوفَّق . النظرة السطحية للأمور تقول : إنها شر وخسارة تدعو إلى السخط والعياذ بالله ، لكن النظرة المتأنية المتأملة ترى لله تعالى حكمة فى هذا الإخفاق .

فالأب العاقل فى مثل هذه المواقف يقول لولده : يا بنى ، احمد الله فأنت دائم النجاح ، ولعلك إنْ نجحتَ هذا العام لا تَسْلَم من عيون الحاسدين ، وهذه فرصة لك لتزيد من مجموعك لتدخل الكلية التى تريدها .. الخ .

وهكذا يُوثق الوالد علاقة ولده بالله ، ويُزيد من إيمانه ورضاه بربه ، ويُبعده عن السخط وعدم الرضا بالقضاء ، وهذه مسألة ينبغى على الآباء الاهتمام بها .

إذن : اللمسة التى نريد الوقوف عندها فى هذه الآية أن الرحمن إنْ كانت تنافى عندك فعْل الضر ، فهذا عندك أنت ، إنما عند مُجريها لا تنافى ، لأنها من الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿لَا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا (٢٣)﴾[يس] يعنى : شفاعة هذه الآلهة - إنْ كانت لهم شفاعة - لا تُجدى ، لأنهم شركاء لله وأنداد لله ، فكيف تُقْبل شفاعتهم عنده سبحانه ؟

وشرط فى الشفاعة أن يكون الشافع محبوباً عند المشفوع عنده ، فهذه الآلهة على فرْض أنه كان لهم شفاعة ، فهى غير مقبولة عند الله تعالى ، مع أن هذه الآلهة فى ذاتها معذورة حيث لا ذنبَ لها ، فهى ما ادَّعَتْ أنها آلهة ، إنما ادَّعى البشر ذلك .

وسبق أنْ ذكرنا أن هذه الآلهة قد تبرأت من كونها تُعبد من دون الله ، وصدق الشاعر الذى صاغ هذا المعنى ، فقال على لسان هذه الآلهة :

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَدُ لله ... منَ القَائمينَ بالأسْحَار
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ ... تجنوه على ابْنِ مريَم والحَوارى
تَخذُوا صَمْتَنَا علَينَا دليلاً ... فغدَوْنَا بهمُ وَقُودَ النَّار
للْمُغَالى جَزَاؤُه والمغَالَى فيه ... تُنْجِيه رحمةُ الغفَّار

وقوله سبحانه : ﴿ وَلا يُنقِذُون (٢٣) ﴾ [يس] لأن الشافع حين تُرد شفاعته يمكن أن ينقذ المشفوع فيه من يد المشفوع عنده ، أما هؤلاء الآلهة فلا تُقبل شفاعتها ، ولا تستطيع أنْ تنقذ مَنْ طلب منها أنْ تشفع له .

وقد بيَّنَّا معنى الشفاعة ، وأنها من الشفع يعنى : إنسان له قضية ، ولا يستطيع وحده بأسبابه حَلَّ هذه القضية فيستعين بآخر ليساعده وينضم إليه ليُقوِّيه على حلِّها ، إذن : بعد أنْ كان مفرداً صار بالشافع شفعاً . يعنى : اثنين .

ولما أراد الحق سبحانه أن يجلى لنا هذه المسألة قال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ (٤٨) ﴾ [البقرة]

وقال فى موضع آخر : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

تلحظ أن صدر الآيتين متفق لكن عجزهما مختلف ، فلماذا ؟ قالوا : لأن مرجع الضمير مختلف ؛ لأن عندنا هنا نَفْساً جارية ،

ونفساً مجزياً عنها ، فإنْ أعدْتَ الضمير على المجزى عنها ، فالمجزى عنه لا يشفع بنفسه ، إنما يعرض العدل أولاً ، ويطلب تقويم الضرر ليدفع فدْيته ، فإنْ لم يقبل منه العدل بحث عَمَّنْ يشفع له ، إذن : فالمعنى : لا يُقبل من ذاتها عدل ، ولا تنفعها شفاعة الغير .

فإنْ أعدْتَ الضمير على النفس الجازية - أى : الشافعة - فإن الشافع يتقدم ليشفع أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته فإنه يعرض العدل ، ويتحمل الفدية .

إذن : هذه الآلهة - على فَرْض أن لها شفاعة - فهى شفاعة مردودة غير مقبولة ، وهم أيضاً لا يستطيعون إنقاذ مَنْ يلجأ إليهم من قبضة الحق سبحانه ، فهم لا يصلحون للشفاعة ، ولا للإنقاذ ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

وقوله : ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] يعنى : إنْ فعلتُ ذلك ، وذهبتُ إلى عبادة هذه الآلهة أكون فى ضلال ﴿مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] بيِّن واضح ، وقوله : ﴿لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] كأن الضلال يحاصره ويحيط به من كل ناحية ، بحيث لا يستطيع أنْ ينجو منه .

ثم يقول هذا الرجل المؤمن : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾[يس] هذا الخطاب يصح أنْ يُوجَّه إلى الرسل الذين جاء الرجل ليساندهم فى دعوتهم ويناصرهم ، فنظر إليهم وقال ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ (٢٥)﴾[يس] ومعنى ﴿فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾[يس] أى : اسمعوا منى ما أناصركم به ، واشهدوا لى بأننى متطوع بهذه المساندة الإيمانية ، لم يُكلِّفنى أحد بها .

ويصح أنْ يكون هذا الخطاب مُـوجَّهـاً إلى القوم المكذِّبين ، فـهو يقول لهم : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ (٢٥)﴾[يس] يعني : الله ربكم رغماً عنكم ، وإنْ كنتم كافـرين به سبحانه فـأنا احترمت ربوبيتـه لكم ، وآمنتُ بها لأدخل في عظمة هذه الربوبية ﴿فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾[يس] أي : اسمعوا مني هذا البـلاغ لأكـون قـد أدَّيْتُ مـا وجب عليَّ نـحوكـم ، وأبلغـتكم ولم أخدعكم أو أغشَّكم[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾

بناء الفعل (قيل) للمجهول يفـيد التعميم ، فمَن الذي قال له ادخل الجنة ، ومتى قال ؟ في القرآن آية نقـرؤها تجيب عن ذلك ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت]

فالرجل الذي وقف هذا الموقفَ الإيماني متبرعاً ، وجاء من أقصى المـدينة يسـعى ليـسانـد الرسل في أمـر لم يُكلَّف به ، ويأتي للقـوم المكذِّبين بحجج وبراهين لم يَأْتِ بها الرسل أنفـسهم جدير بأنْ تتنزَّل عليه الملائكة ، وبأن تبشـره بالجنة . أو : أن الحق سبحانه حكى عنه ما يقوله بعد أنْ يموت ويدخل الجنة ، وهذا إكبار من الله له .

---

(١) أما القول الأول : أنه خطـاب للرسل ، فهو قول ابن مسـعود . ذكره القرطبي في تفـسيره (٨/٥٦٥٤) ، ونقله السـيـوطي في الدر المنثـور (٧/٥٢) ، أما القـول الثـاني : أنه خطاب لقومـه ، فقد نقله القرطبي في تـفسيره عن كـعب الأحبار ، ووهب بن منبه . فـالآية يجوز فيها التأويلان .

ومن مؤهلات هذا الرجل لدخول الجنة أنه لم ينظر إلى حَظٍّ نفسه من التديُّن ، إنما نظر أيضاً إلى حَظِّ إخوانه ، فحتى بعد أنْ بُشِّر بالجنة ، أو بعد أنْ دخلها لم ينشغل بنعيمها عن قومه ، إنما قال﴿ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [يس] يعنى : ما أنا فيه من النعيم ، وما انتهى إليه أمر الإيمان والطاعة ، ليعملوا مثلى ولينالوا ما نلْت ، إنهم لو علموا لتهافتوا على الإيمان ، وأقبلوا على الطاعة أكثر من تهافتهم على الكفر والمعصية .

وقوله : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾ [يس] لاحظ أن المغفرة سبقتْ المكرُمة ، وهذه المسألة يسمونها التخلية والتحلية ، وسبق أنْ مثَّلْنا لها بالثوب حين تريد أنْ تكويه مثلاً : أتذهب به إلى (المكوجى) بما عليه من وسخ ؟ لا إنما تنظفه أولاً ، ثم تُزيِّنه بالكَيِّ .

كذلك الحق سبحانه وتعالى - ولله المثل الأعلى - قبل أنْ يُدخل عبده الجنة يُنقِّيه أولاً من الذنوب ، ويطهره مما علَق به ، وهذه هى التخلية ، ثم يُكرمه بالجنة ، وهذه هى التحلية ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه يمتنُّ علينا أولاً بأنْ يُزحزحنا عن النار بمغفرة الذنوب ، ثم يُكرمنا بدخول الجنة كرامةً منه وفضلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ (٢٩) ﴾

نفهم من سياق هاتين الآيتين أن القوم المكذِّبين قتلوا هذا الرجل المتطوع ، أو أنه مات بطبيعة الحال[1] ، والمنتظر أن الله تعالى يجازيهم على تكذيبهم للرسل الثلاثة أولاً ، ثم تكذيبهم للرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لنصحهم ، فماذا فعل الله بهم ؟

يقول سبحانه : إن أمر هؤلاء المكذِّبين أهون من أنْ نُنزل عليهم جُنْداً من السماء تهلكهم . ومجرد صيحة واحدة كافية لهلاكهم ، فالمعنى ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنۢ بَعْدِهِ (٢٨) ﴾ [يس] أى : من بعد النصيحة والعظات والبراهين التى تطوَّع بها ﴿ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) ﴾ [يس] يعنى : لم نُنزل وما كان ينبغى لنا أنْ نُنزل عليهم جنداً من السماء ؛ لأن الأمر أهون من ذلك .

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً (٢٩) ﴾[يس] أى : ما كانت إلا صيحة واحدة ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) ﴾[يس] كلمة ﴿ خَامِدُونَ (٢٩) ﴾[يس] تدل على أنهم كانوا متحمسين للكفر بهم فى أُوَار وغضب واشتعال على رسل الله أولاً ، ثم على الرجل المتطوع ثانياً ، فَهُمْ فى ذلك أشبه بالنار المتأججة ، فأخمدها الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك كلمة يصح أن يقولها كل مؤمن يرى مصارع العاصين ونهاية الكافرين الذين أدركهم الموت قبل أنْ يتداركوا أنفسهم بالإيمان ، يقول :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٦٨) : « قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه ، وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك » . أما القرطبى فى تفسيره (٧/٥٦٥٤) فقد ذكر عدة أقوال ، منها قول ابن مسعود أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه (أى أمعاؤه) من دبره . وألقى فى بئر الرس ، فهم أصحاب الرس .

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾

هذه كلمة تحسُّر كثيراً ما نقولها تحسُّراً على فوات الخير ممن نحب له الخير ، ومعنى ﴿يَٰحَسۡرَةً ٣٠﴾[يس] هذا نداء كأنك تناديها تقول : يا حسرة تعالَىْ ، فهذا أوانك . والتحسُّر هنا على العباد الذين كذَّبوا رسل الله واستهزأوا بهم ، وهذا أمر يجب أنْ يتحسَّر عليه كل مؤمن ؛ لأن الله تعالى خلقك وخلق لك قبل أنْ يستدعيك للوجود .

خلق لك مُقوِّمات حياتك المادية ، وصان مادتك بما قدَّر لك فى الأرض من أقوات ومن ضروريات وكماليات ، فهل يُعقل أنْ يُعطى كل هذا للبدن ويُترك الروح بلا عطاء ، وهى أهم من البدن ؟

لا بُدَّ إذن أنْ يكون للروح عطاء وغذاء وقيم ، بل إن القيم هى مطلوب الله من عبده ؛ لأنك ستكون عابداً لله ، مطيعاً لأوامره ، منتهياً عن نواهيه ، وهذا هو المنهج الذى كلَّفك به فى افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك تجد أن عطاء المادة ومُقوِّمات حياة البدن مكفولة للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصى ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعى الكل إلى الوجود ؛ لذلك تكفَّل بأرزاقهم ، كما تستدعى أنت مثلاً ضيفاً إلى بيتك ، فتهيىء له مطعمه ومَشْربه ومُقَامه عندك ، وكل الناس أخذوا هذا العطاء .

أما عطاء القِيَم والروح ، فبعضهم أخذه وبعضهم تركه ؛ لأن عطاء المادة سمح له بشهوة نفسه ، أما القِيَم فقيَّدتْ هذه الشهوة

وأمسكتها عن أشياء ، نفسه تريدها ، فلما صَدَّته القيم عن شهوات النفس تركها وتملَّص منها .

هذا المنهج القيمى جاء من مُحبٍّ لك حريص على مصلحتك ، كما ذكرنا فى الحديث القدسى عن رب العزة : (عبدى ، أنا لك مُحبّ ، فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً) فأنت المنتفع بهذا المنهج ؛ لأن الله تعالى خلقك بكل صفات الكمال فيه سبحانه ، فطاعتك لا تزيده كمالاً ، كما أن معصيتك له لا تُنقصه شيئاً من صفاته ، ولا تضره بشىء .

لذلك جعل الله من عباده الغنى والفقير ، وكان قادراً سبحانه على أنْ يجعلنا جميعاً أغنياءَ لا يحتاج أحد منَّا إلى أحد ، والفقير لو تأمل الحكمة فى فقره لحمد الله ولَعلم أنه بفقره شرْط فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير ، فالغنى يحتاجنى قبل أنْ أحتاجه أنا ، الغَنىّ يسعى ويتعب ويكابد أسباب الرزق والتجارة والمكسب والخسارة ، ثم يأتى إلى بابى ليعطينى حَقَّ الله فى ماله وأنا مستريح البال .

الغنى فُرض عليه الحج ، وإنْ قصَّر فيه يُعاقب ، وإنْ حَجَّ فهو بين قبول أو رَدٍّ ، فإن لم يُقبل حجه ظلتْ الفريضة عليه . وفرْق بين مَنْ فُرض عليه الركن ، وبين مَنْ لم يُفرض عليه أصلاً .

إذن : المتأمل يرى أن الفقير أحظُّ من الغنى ، وغير المستطيع أحظُّ من المستطيع .

وقد كنا مع بعض الإخوان ، فأردنا أنْ نصلى المغرب فى مسجد سيدنا الحسين ، فلما قُمْنا للصلاة ، استوقفنا عم الحاج سيد جلال وقال : انتظروا دقيقتين ، لأننى أرسلت الولد سليمان (يفك) لى

عشـرة جنيهات ، فقـال أحد الحاضـرين : معى جنيهـات جديدة هَات العشرة جنيـهات أفكها لك ، فقال الحـاج سيد : لا ، لأن الرجل الذى أنوى أنْ أعطيه لا يـأخذ إلا الجنيه الكبـير بتـاع زمان ، ويرفض هذه العملة الجديدة .

فقلت فى نفسى : سـبحان الله ، هذا الرجل المجـذوب الذى يقعد على باب سيدنا الحسين وصفته كذا وكذا يُسخِّر أكبر رجل اقتصادى فى مصـر عم سيـد جلال ، ومـعه الوزير أحمـد طعيـمة ليـوفروا له النقود التى تعجبه .

والعجيـب أن من هؤلاء مَنْ كان يجلس على باب سيدنا الحـسين يضع رِجْلاً على رِجْل ، ويمـرُّ عليه موكب الوزير والوزراء فلا ينـتبه إليـهم ، ولا هو يلقى بالاً إلى الموكب والحـراس والدنيا من حـوله ، فمـاذا يعنى هذا ؟ يعنى أنه مشغـول بما هو أعظم من هذا كله ، وأن الله قد تجلَّى عليه بما أفقده الوعى بالدنيا وبما حوله .

لذلك رأى أحد منهم موكبـاً لأحد الوزراء فقال للآخر : والله نحن فى لذة ، لو علم بهـا هؤلاء لحـاربونا عليهـا بالسـيف ، أليس هؤلاء سادة ؟ أليسوا أَعِزَّة ؟

إذن : كل مؤمن يرى مصير المكذِّبين ومصارع الكافرين فى هذه القصـة وفى أشباهها لا بُدَّ أن يقـول هذه الكلمة ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ (٣٠)﴾[يس] لماذا ؟ لأن من تمام الإيمان أنْ يتحسَّر المؤمن على مَنْ لم يَذُقْ طعم الفضيلة ولذة الطاعة ، فهو مـسكين يستحق مَنْ يشفق عليه ويتحسَّر على حاله ، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل ويحب الخير للإنسانية كلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يعنى : كان يكفى هؤلاء المكذبين أن ينظروا مصير مَنْ كذَّب قبلهم ، وما حاق بهم من العذاب ، وأنهم بعد أنْ أهلكهم الله لم يرجع منهم أحد . وكلمة ﴿ يَرَوْا ﴿٣١﴾ ﴾[يس] من الفعل رأى ، وهى تأتى : بصرية أو علمية ، تقول : رأيت المشهد ، فهذه رؤية بصرية ، وتقول : رأيت هذا الرأى يعنى علمته ، والرؤية البصرية تقصر معلوماتك على ما اتصلتْ به جارحتك ، أمّا العلمية فتعطيك ما اتصلتْ به جارحتك وجوارح الآخرين ، فالرؤية العلمية إذن أوسع من البصرية .

لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلد فى عام الفيل ، وربما بعد هذه الحادثة ، إذن : لم يَرَ منها شيئاً رؤية بصرية ، ومع ذلك خاطبه ربه بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾[الفيل] يعنى : ألم تعلم ، سواء أكان قومه قصُّوا عليه القصة ، أو أن الله تعالى أخبره بها .

والرؤية البصرية للأحداث أوثق وسائل الإدراك لأنه كما يقولون : ليس مع العين أين ، لكن لماذا عدل السياق عن ألم تعلم إلى ألم تر ؟ قالوا : فى هذا إشارة من الحق سبحانه لنبيه يقول له : إن إخبارى لك بقضية علمية أوثق من رؤيتك بعينك .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴿٣١﴾ ﴾[يس] تعنى أن من هؤلاء القوم مَنْ

رأى بالفعل مصارع المكذِّبين ، ومرَّ على ديارهم وهى خاوية على عروشها فى أسفارهم ورحلات تجارتهم فى الشتاء والصيف ، ومعنى ﴿كَمْ (٣١)﴾[يس] تفيد الكثرة ، وأنه أمر فوق الحصر كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك وكأنك تقول له : أنا أرتضى حكمك وأستأمنك أنت على الجواب ، وبذلك تحوَّل الإخبار منك إلى إقرار منه هو .

ومعنى : ﴿مِّنَ الْقُرُونِ (٣١)﴾[يس] القرون جمع قرن ، وهو فترة من الزمن قدَّروها بمائة عام ، والقرن أيضاً يعنى الجماعة أو القوم يجمعهم الشىء الواحد مهما طالتْ فترته كالدين الواحد ، أو حكم ملك من الملوك .. الخ . فمثلاً نقول : قوم نوح وقد أخذوا من الزمن مساحة ألف عام أو يزيد .

وقوله : ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١)﴾[يس] يحتمل أكثر من معنى حسب عَوْد الضمير فى (أنهم) وفى (إليهم) فالآية تتحدث عن قرون أُهلكَتْ من قبل وتخاطب مكذِّبين معاصرين ، فإنْ عاد ضمير الغائبين فى (أنهم) إلى القرون التى أهلكت . فالمعنى : أنهم لا يرجعون ، ولم نَرَ أحداً منهم رجع بعد هلاكه ، وإنْ عاد الضمير على المخاطبين الموجودين . فالمعنى : أنكم أيها المخاطبون ، لا ترجعون فى نسبكم إلى هؤلاء الذين أهلكهم الله ؛ لأن الله تعالى استأصلهم بحيث لم يُبْقِ منهم أحداً ولا نسلاً .

والآية فى مجملها تعنى أن هلاك الكافرين والمكذبين ليس بدعاً ؛ بل هو سنة مُتَّبعة على مَرِّ الزمان ، فالقرآن يقصُّ علينا ما نزل بعاد وثمود وفرعون : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي

الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢)﴾ [الفجر]

والله تعالى أبقى الآثار لتدلنا على صدْق ما أخبرنا به سبحانه ، وها نحن نرى أمريكا مثلاً ، وهى سيدة الحضارة الحديثة ، وصاحبة الأسبقية فى الابتكار والاختراع وغزو الفضاء ، ومع ذلك يأتون إلى مصر ليشاهدوا آثار الفراعنة التى بُنيت قبل الميلاد بآلاف السنين ، ويتعجبون رغم تقدُّمهم العلمى من كيفية بناء الأهرامات مثلاً .

هذه السُّنة - سُنة إهلاك الكافرين - نرى لها شواهد فى عصرنا الحديث ، فروسيا التى انتحرت وقتلتْ نفسها بنفسها ، انظر ماذا فعلتْ فى الشيشان ، هذه الدولة الإسلامية الصغيرة ، فى حين قصَّرنا نحن عن نُصْرتهم ، أو أن نُصْرتنا لهم لم تكُنْ على قَدْر جبروت المعتدين ؛ لذلك تدخلت السماء وردَّ الله على أعداء دينه ، وثأر منهم فى زلزال سخاليل .

وقوله تعالى فى الآية بعدها : ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)﴾[يس] جاءت هذه الآية بعد قوله سبحانه ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١)﴾ [يس] لتوضح أن عدم الرجعة أى فى الدنيا ، وإلا لو لم يكُنْ لهم رجعة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فالموت راحة بالنسبة لهؤلاء المكذِّبين ، كما قال الفخر الرازى[1] رحمه الله ، إنما المراد : لا يرجعون فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا بُدَّ من الرجوع للحساب عن كل كبيرة وصغيرة .

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، ولد ٥٤٤ هـ فى الرى (طهران) ، إمام مفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان ، توفى عام ٦٠٦ هـ عن ٥٢ عاماً بهراة . من كتبه « مفاتيح الغيب » فى تفسير القرآن ، و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » [الأعلام للزركلى ٦/٣١٣]

قوله سبحانه (وإنْ) إنْ هنا بمعنى ما النافية و (لَمَّا) بمعنى إلا ، فالمعنى : وما كُلٌّ إلا جميع لدينا مُحْضرون . وقد عرفنا من دراستنا لقواعد النحو أن كل وجميع من ألفاظ التوكيد المعنوى للجمع ، ومثلهما أبصع وأكتع وأبتع ، تقول : جاء القوم أجمعون أو أبصعون أو أبتعون ، وجاء القوم كلهم . ونلحظ أن الآية جمعتْ بين لفظى التوكيد كل وجميع ، فلماذا ؟

قالوا : الجمع بينهما ضرورى هنا ، لأن لكل منهما مدلولاً ، لا تؤديه الأخرى ، فالكُلية تفيد الشمول للأفراد فى الرجوع ، فكلهم يعنى كل فرد منهم ، ولا يُشترط أن يكونوا مجتمعين سوياً ، إنما يأتى كُلٌّ بمفرده لتُرى الذلَّة والصَّغَار على المسرفين وعلى الكافرين الذين جعلوا من أنفسهم آلهة مطاعة . أمَّا جميع فيعنى : يأتون مجتمعين .

ومعنى ﴿مُحْضَرُونَ (٣٢)﴾[يس] من الفعل حضر ، وفَرْق بين حضر وأُحْضِر ، حضر، أى : طواعية بنفسه وبرغبته ، أما أُحْضِر أى : أجبر على الحضور ، وأكْره رغم أنفه .

● ● ●

بعد أنْ ذكر الحق سبحانه مسألة البعث فى ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)﴾[يس] أراد سبحانه أنْ يذكر دليلاً على صدْق هذه القضية ؛ لأن البعث من المسائل التى ينكرها كثيرون ، وصدق القائل[1] :

زَعَمَ المُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليكُمَا

---

(١) هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله ، التنوخى ، ولد عام ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان وتوفى فيها عام ٤٤٩ هـ عن ٨٦ عاماً ، شاعر وفيلسوف ، أصيب بالجدرى صغيراً فعمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ، وكان يُحرِّم إيلام الحيوان ، له « رسالة الغفران » ، « لزوم ما لا يلزم » وغيرهما .

إنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فلَسْتُ بِخَاسِرٍ   أوْ صَحَّ قولى فالخَسَارُ عليكُمَا[1]

وكما يقول لك الناصح : إنْ ذهبتَ فى الطريق الفلانى فاحذر وخُذْ الاحتياط ؛ لأن فيه ذئاباً وسباعاً وقطاعَ طرق ، فماذا عليك إنْ أخذتَ الحيطة ، ولم تجد شيئاً ، مما خوّفك منه ؟ كذلك اعتقادى فى البعث إنْ لم يُفدنى لا يضرنى ، واعتقادكم إنْ لم يضركم لا يُفيدكم .

وأقوى شبهة فى مسألة بَعْث الأجساد عند الفلاسفة أنهم قالوا : هَبْ أنَّ إنساناً مات ودُفن وتحلَّل جسده وزرعت على قبره شجرة تغذَّت من بقاياه ، ثم أثمرتْ وأكل من ثمارها إنسان آخر ، فوصلت إليه عناصر من الأول ، فحين يكون البعث . كيف تُبعَثُ هذه العناصر للأول ، أم للآخر ؟

وصاحب هذه الشبهة فَهم أن العناصر حين تتكوَّن لها ذاتية فى التكوين ، ولم يفهم أن لها جنسية فى التعميم ، كيف ؟ نقول : هب أن إنساناً أصابه مرض أنقص وزنه عشرين كيلو مثلاً ، ثم هدى الله الطبيب إلى علَّته ووصف له الدواء شُفى من مرضه وتغذَّى حتى عاد إلى وزنه الأول ، أين ذهبتْ عناصره التى نقصتْ منه ؟ وهل هى نفس العناصر التى عادتْ إليه بعد أنْ شُفى ؟

إذن : المسألة ليست خصوصية عناصر ، بل كمية عناصر ، والعظمة فى أنْ نحصى كمية عناصر كل إنسان ، فلو جمعت كمية العناصر الموجودة عندى (أكون) محمد الشعراوى ؛ لأن عناصر البشر جميعاً واحدة هى الستة عشر عنصراً المعروفة ، والتى تبدأ

---

(١) البيتان من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر الكامل ، عدد أبياتها سبعة أبيات ، وفى أولها « قال » بدلاً من « زعم » . انظر ديوانه والموسوعة الشعرية .

كما ذكرنا بالأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم النتروجين ، ثم الهيدروجين .. الخ لكن يختلف الأشخاص باختلاف كميات هذه العناصر عند كل منا ، فأنت عندك كذا أكسوجين ، وكذا كربون ، وكذا نتروجين ، وأنا أعلى منك فى الأكسجين ، وأقلّ منك فى الكربون ، وهكذا .

والحق سبحانه يُعلِّمنا أن المسألة ليست ذاتية عناصر ، خصوصية عناصر ، إنما قيمة عناصر ، فيقول سبحانه فى سورة (ق) : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾[ق] يعنى : يحفظ هذه الكميات ويُحصيها بمقاديرها ، فإذا أراد سبحانه البعث جمع نسبة كذا ونسبة كذا تعطى فلاناً ، ونسبة كذا إلى نسبة كذا تعطى فلاناً وهكذا ، ولم يقف الأمر عند علم هذه النِّسَب ، بل حفظها الله وسجَّلها فى كتاب حفيظ .

وفى موضع آخر ، يردُّ الحق سبحانه على منكرى البعث يقول لهم : لماذا تكابرون فى البعث ، وهو إعادة لشىء كان موجوداً بالفعل وتفَرَّقتْ عناصره ، والأعجب من ذلك أنْ أنشأته من غير موجود ، إذن : فالبعث أهون من الإعادة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ㉗﴾ [الروم] هذا إنْ جاريناكم فى فَهْمكم للأمور ، واتبعنا قوانينكم فى التفكير .

وسبق أنْ أوضحنا أن العناصر التى خلقها الله فى الكون هى هى ، لم تزد شيئاً ، ولم تنقص شيئاً ، فالماء مثلاً هو نفس الماء منذ خلق اللهُ الأرض ، لكنه يدور فى دورة معروفة ، فالإنسان مثلاً يشرب طوال حياته كذا طن من الماء ، فهل يحتفظ بها ؟ لا بل تخرج منه فى صورة بول وخلافه ، حتى بعد أنْ يموت يتبخّر ما فيه من